أ.م.د الاء شوقي عبدالباقي

جامعة بغداد/كلية التربية للبنات

لا تخلو الدول والمجتمعات من أزمات اقتصادية خانقة، تنتهي لانتهاج التقشف، وسن قوانين التدبير وشد الحزام، ابتلاءً من الله تعالى، أو بسبب تضخم الفساد وتشوش المسيرة، وويلات الحروب، وعدم استثمار أيام الرخاء المالي، أو كفران النعم، ويبيت الناس في مأزق وضائقة من ذهاب الرفاهية ، فيجب علينا الاتعاظ وعدم الركون إلى الدنيا وزينتها وأمنياتها، وأن نعي تقلباتها ودورانها بما نحب ونكره .

قال تعالى:(**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**) [١]. وقد استعاذ -صلى الله عليه وسلم- من الجوع وشر فتنة الفقر فقال: « **اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ** »[٢]. وقرر أن حيازة الدنيا بحذافيرها، تكمن في قوت يوم بهيج .ومن شواهد الابتكارات الاقتصادية الإسلامية السابقة هو ما ورد مثبتا في القرآن الكريم عن يوسف -عليه السلام- وإدارته الاقتصادية المبتكرة التي كانت على نمط فريد لم يسبق إليه، وهي نموذج عن التخطيط الاقتصادي طويل الأجل وإعداد الموازنات، فقد علّم يوسف عليه السلام الملك، كيف يخطط اقتصاديا، بانتهاج طريقة لم تكن معروفة قبل ذلك، وهي التحكم في الإنتاج الزراعي تخزينا وإنتاجا واستهلاكا، ثم ادخارا للفائض بطرق تضمن عدم هدر الموارد الزراعية آنذاك.

ورؤيا الملك سنوات الرخاء والعجاف، وكيف أن البلد ، استمر بضائقة شديدة تتطلب الحذر وحسن التخطيط، ووعَى يوسف -عليه السلام- الرؤيا، وقد آتاه الله علمها وتفاصيلها، فعبر الصدّيق الأبقار السبع السمان بسنوات الخير والازدهار، والسبع العِجاف بأيام الجدب والجفاف، ومن هذا نستشف أن خطة يوسف -عليه السلام- كانت تستهدف المجتمع بأسره ﴿ تزرعون﴾،

---

[١] سورة الانبياء، جزء من الاية(٣٥).

[٢] سنن ابي داوود، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، رقم الحديث(١٥٤٦):١/٥٦٦.

وإرادته الحكيمة متوجهة لإيجاد صفات في ذلك المجتمع تمكن من تحقيق الهدف المرسوم واجتثاث أي عائق في سبيل التنمية.. ومن ذلك:

١-مصارحة المجتمع والملك بالخطر القادم والاعتراف بالمشكلة قال تعالى على لسان يوسف -عليه السلام-: **(تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا)** [٣]. وفائدة ذلك تحمل المسؤولية والحفاظ على الوحدة والاجتماع وتخفيف الاستقرار النفسي .

٢-المشاركة والمبادرة في حل الأزمة، وعدم الفرار أو الانزواء، قال تعالى: **(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)** [٤] .

٣- الأمر بالزراعة المتوالية وترك الكلل والتعب **(تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا)** [٥] والدأب: استمرار الشيء على حالة واحدة[٦] .

ويراد بذلك زيادة ساعات العمل وزيادة استثمار الطاقة الإنتاجية للأمة، وهذا يستدعى محاربة البطالة بجميع أنواعها ولاسيما البطالة المقنّعة التي تظهر المجتمع بغير صورته الحقيقية ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

٤- أن أوقات الشدائد لا تحتمل مسالك النوم والتراخي والهوان .

٥-انتهاج الادخار في السنابل، والأكل القليل، قال تعالى: **(فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ)** [٧]. وهو ما يسمى بنظرية (التقليل الاستهلاكي). وفي المثل (ما عال من اقتصد)، والاقتصاد نصف المعيشة .

٦-الاحتياطي التحصيني وقت السبع العجاف المجحفة، قال تعالى: **(يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ)** [٨] فلن يجدي ساعات الجدب إلا ما أحصنتم من البذور والزرع .

---

[٣] سورة يوسف، جزء من الاية(٤٧).

[٤] سورة يوسف، (٥٥).

[٥] سورة يوسف، جزء من الاية(٤٧).

[٦] ينظر: لسان العرب، لابن منظور:٣٦٨/١.

[٧] سورة يوسف، جزء من الاية(٤٧).

[٨] سورة يوسف، جزء من الاية(٤٨).

٧-استعمال (واو الجمع) (تزرعون) (فذروه) (تحصنون) في أكثر مخاطباته، يوحي بتحميله كافة المجتمع مسؤولية المجاعة العامة، وضرورة التيقظ والمشاركة الفاعلة .

٨-استثمار مواسم الرخاء والخير، قال تعالى: (**عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**) [٩].

٩-تثبيت منهج التفاؤل في إدارة الأزمة وهو منهج أنبيائي نبيل، يحمل الناس على الانشراح والصبر وحسن العمل،**عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: كلمة طيبة»**[١٠].

١٠-مبادرة أهل المواهب والتمكن في دفع البليات، قال تعالى: (**إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**) [١١] وضرورة استثمار القدرات الذاتية في الحل والمعالجة قيل: حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها[١٢]، وقيل : حفيظ لما استودعتني، عليم بما وليتني[١٣] .وقيل: إني حفيظ لما وليت عليم بأمره[١٤]. وقيل: (حفيظ) أي: خازن أمين، (عليم) ذو علم وبصر بما يتولاه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله) :(وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب، فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة كما قال تعالى:(**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**) [١٥] والقوة في كل ولاية بحسبها) [١٦].

١١-اتخاذ الأكفاء عضدا ونصيرا في الملمات، وهو شكل من أشكال النزاهة والتباعد من إدارة المفسدين ، ومن ثمراته حل المشكلات وضمان جوهر النهضة وتقدمها .

---

[٩] سورة يوسف، جزء من الاية(٤٩).

[١٠] صحيح البخاري، كتاب الطب، باب لا عدوى، رقم الحديث(٥٧٧٦):١٣٩/٧.

[١١] سورة يوسف، جزء من الاية(٥٥).

[١٢] معالم التنزيل في تفسير القران، البغوي:٤٩٨/٢.

[١٣] جامع البيان في تاويل القران، الطبري:١٥٠/١٦.

[١٤] الكشف والبيان، الثعلبي:٢٣١/٥.

[١٥] سورة القصص، جزء من الاية(٢٦).

[١٦] مجموع الفتاوى:٢٥٣/٢٨.

١٢- توخي العدالة الإدارية مما يسهم في إنجاح الخطة الإصلاحية، وهو ما تومئ اليه مفردتا (الحفظ والعلم)، فيقسط بين الناس ولا يبخسهم أشياءهم ، وفي الحديث قال -صلى الله عليه وسلم-:**«اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به»**[١٧].

فمن أهم ما يستفاد من هذه التجربة أن علاج الأزمات الاقتصادية يجب قبل الشروع فيها وقبل وقوعها، حيث تتوافر الأدوات والموارد، فلا فائدة في الرغبة في بدء العلاج عندما لا توجد الموارد المطلوبة، لذلك فإن الاقتصاد والتوفير يجب أن يكون سلوكاً أصيلاً، حيث الإسراف هو الاستثناء.

كما أن فيه ملمحا مهما إلى أهمية الإدارة الاقتصادية من قبل المؤهلين، بالعلم والمعرفة والقدرة على اتخاذ القرارات الصائبة في الأوقات المناسبة. فقد أرسى سيدنا يوسف لملك مصر موازنة تخطيطية توافرت لها الأصول العلمية والعملية وازن فيها الانتاج الزراعي، والإيرادات، والنفقات الاستهلاكية بهدف مواجهة المخاطر المحتملة من المجاعة المتوقعة.

فيوسف عليه السلام هو أول من وضع قواعد الادخار الحكومي الموثق على مر التاريخ، وأول من أشار إلى الدورات الاقتصادية من حيث الرواج والكساد، فيقيس كثير من المنظرين هذه الدورات بمدة سبع سنوات كعمر تقديري متوقع للدورة الواحدة .و إن تأويل يوسف عليه السلام للرؤيا يحمل في طياته معان أزلية، هي سنن تتكرر في الأمم، فحياة الأمم لا تسري على وتيرة واحدة، بل تتأرجح بين فترات الخصب وفترات القحط، بين رخاء وكساد، أو غنى وفقر.

---

[١٧] صحيح مسلم، كتاب الامارة، باب فضيلة الامام العادل، رقم الحديث(١٨٢٨):٣/١٤٥٨.

المصادر:

١-القران الكريم
٢- معالم التنزيل في تفسير القران، البغوي
٣- جامع البيان في تاويل القران، الطبري
٤- الكشف والبيان، الثعلبي
٥- مجموع الفتاوى،ابن تيمية
٦- صحيح البخاري
٧- صحيح مسلم
٨- سنن ابي داوود
٩- لسان العرب، لابن منظور
١٠-يوسف والازمة الاقتصادية ar.islamway.net
١١-الازمة الاقتصادية في عهد النبي يوسف -عليه السلام- وسبل حلها
Ijtihadnet.net